إعــــلان حرب !

للأستــــاذ علي الطنطاوي

كانت برهة ما بين الحربين ، امتحاناً لنا ، معشر العرب ، واختباراً لعزائمنا ، وقد خرجنا من هذه المحنة ناجحين مظفرين وأثبتنا أننا لم نضع إرث الجدود ، ولم نفقد عزة الإسلام ، وأنه لا يزال في عروقنا دم الأجداد ، ولا تزال في قلوبنا عزائمهم وأرينا الدنيا كلها أن استماتة الحق تغلب قوة الباطل ، حين حاربنا ونحن شعوب عزل جيوش الدول التي انتصرت في الحرب الأولى وسكرت بخمرة الظفر ، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه ، وزاحمته على سلطانه ، فقابلتها شرذمة منا ، مالها سلاح إلا سلاح الحق وما تنتزعه أيدي عدوها ، وثبتت لها وأرهقتها عسراً من أمرها ، حتى لانت لها ، أو نزلت على مطالبها : حاربنا الإنكليز في شوارع مصر ، وفي سهول العراق ، وفي ربوع فلسطين ، وحاربنا الفرنسيين في جنان دمشق ، ورحاب حماة ، وشماف الجبل وحاربنا فرنسا وأسبانيا معاً في سوح الريف الأقصى ، وحاربنا الطليان في طرابلس ، وثرنا على الغاصب في كل بقعة من أرض العرب ، وما خليناه ليلة من إزعاج ، ولا أرحناه ساعة واحدة ، ولكن كنا نحارب شعوباً لا حكومات ، أما حكوماتنا فكانت علينا مع عدوها وعدونا ، حتى استقر في أفهام الشعب أن حكومته خصم له ، وحتى صرنا في الشام إذا أثرنا ثورة أو سيّرنا مظاهرة ، أعملنا سلاحنا في إخواننا من رجال الشرطة ، كإعماله في خصومنا من الفرنسيين ومن كان يناصرهم علينا وقت الثورة من المغاربة والشراكسة والأرمن والسنغاليين ، وحتى كدنا نفقد على طول المدى ، توقير الأنظمة ، وتقديس القوانين ، لأنها من عمل الأجنبي وعمل عبيده ، لا يضعونها إلا لمصالحهم ، وضمان منافعهم إلى أن كان حادث مايو سنة ١٩٤٥ وجُنّ الفرنسيون الجنة الكبرى فأبوا إلا أن يضربوا ديمقراطيتهم ... وعدالتهم ... ومبادىء ثورتهم ... دفعة واحدة ، فضربوا المدينة الآمنة بقنابل الطيارات ، وقذائف المدافع ، من القلاع المنصوبات على الجبال ورموا بالنار ، الأطفال في المدارس ، والمرضى في المشافي ، والمحبوسين في السجون ، وأحرقوا البيوت وهدموها على أهلها ، وقتلوا رجال مصلحة الإطفاء الذين جاؤوا ليطفئوها ، وفعلوا كل ما يليق بحضارتهم وتاريخهم وأمجادهم . . ولا ينتظر غيره منهم .

هنالك رأينا ، أول مرة ، رجال الشرطة والدرك يقاتلون معنا ويدافعون عنا ، ورأينا الرؤساء والوزراء في صفنا ، يحملون ما حملنا ، وينالهم ما نالنا ، فذكرنا ، وقد طالما نسينا ، أنهم إخواننا ، وأنهم منا .

ولبثنا من ذلك اليوم ، نرى الأدلة متتابعة متتالية ، على أننا قد استقللنا ، ونزح العدو عنا ، وجلا عن أرضنا ، وصار حكامنا منا ، لا أقول إن الحكومات قد صلحت حتى ما نجد لها فساداً ولا نلقى منها ضرراً ، كلا ، ولا خلص رجالها من أوضار هذا الماضي ، ولا أزالوا آثاره ، ولا يمكن أن تزول في أربع سنين وقد لبث الغاصبون وأعوانهم ، يثبتونها ويبنونها ، دائبين على بنائها عاملين على تثبيتها ، خمساً وعشرين سنة ، ولكن أقول ، أننا (أخذنا) ننزع من نفوسنا تلك الصورة السوداء للحكومة وننسل عنها صبغة العداوة التي كنا نراها مصبوغة بها ، ونعيد إلى أفهامنا توقير الأنظمة والقوانين ، لأنها (بدأت) تصير من صنع أيدينا ، و(شرع) واضعوها يفكرون في وضعها لمنفعتنا ، وضمان مصلحتنا ، لا لمنفعة الوزراء الحاكمين ، ولا لمصلحة الغرباء الغاصبين

ثم تتالت الآيات والدلائل ، وكانت جامعة دول العرب ، وكانت المقاطعة القانونية للصهيونيين ، وكان اجتماع ملوك العرب ورؤسائهم ، وكانت رحلة النقراشي إلى أمريكا ، وقوله فيها ما أعجمت الكلمة على أنه لا يقول أكثر منه خطيب متحمس ، ولا مؤرخ حكيم ، ووجد فيه كل مصري ترجماناً عن أفكاره ، ومعبراً عن مقاصده ، وكان موقف فارس الخوري من قضية مصر ، موقفاً سر كل عربي في الدنيا ، وكانت فتنة سوريه الكبرى ، وكان رأي الحاكمين في الشام والمحكومين جميعاً ، ورأي الدول العربية كلها (إلا مملكة الأردن) واحداً فيها ، ثم كان هذا الحادث العظيم الذي عقدت له هذا المقال ، والذي سيعقد عليه في تاريخ العرب ، فصل مترع بالفضائل والأمجاد ، والذي سيكون مولد (الشرق الجديد) كما كانت هذه الحرب الماضية مصرع (العرب العتيق) ... والأيام دول والدهر

ميزان ، فما ترجح كفة إلا لتطيش ، وما يرتفع طائر إلا ليهبط ولقد أشرقت من الشرق شمس الحضارة ، من مصر وبابل والشام ، ثم مالت إلى الغرب ، إلى يونان وروما ، ثم عادت تطلع من الشرق مرة ثانية ، من المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ، ثم مالت إلى باريس وبرلين ولندن ، وهذا يوم ثالث ، قد أوشكت أن تشرق شمسه على هذا الشرق ، فينفض عنه غبار المنام ، ويهب ... لقد انقضى الليل ، وأذن المؤذن من ذرى لبنان ... من اللجنة السياسية للدول العربية ، التي قرر فيها رجال مسؤولون ، لا أدباء متحمسون ، وأعلنوا باسم حكوماتهم ، أنهم سيحلون عقدة فلسطين ومصر ، كما حل الإسكندر عقدته المشهورة : بالسيف !

هذا هو الحادث العظيم ، وقد قرأ القراء تفصيله في الصحف فما أعيده عليهم ... وهذا أول الجد ، وهـــذا الذي كنا نتمنى بعضه فلا نصل إليه ، ونطلبه فلا نجده ، وهذا الدليل على أننا استقللنا ، وعلى أن حكوماتنا منا وإلينا ، وأنها تنطق بألسنتنا ، وأن هواها هوانا ، وأنه لم يبق في رجالها من يصانع عدواً ، أو يخافه ، أو يتزلف إليه . وأن جيوشنا لنا ، تسالم من سالمنا ، وتعادي من عادينا ، وتذود عن بلادنا ، وكل بلد عربي بلد العرب كلهم ، وكل عدو له عدو لهم ، وكل قضية له قضية لهم .

***

إننا نغفر لحكوماتنا ، بهذا الموقف ، كل ما لقينا منها في السنين الخوالي ، ونعده إسلاماً منها بعد كفر ، والإسلام يجب ما قبله ، فليحسن إسلامها ، ولا يكن كلمة تقال باللسان : إنها قد أعلنت الحرب في الخارج ، فلتعلنها في الداخل ، لتمنع المدد عن عدوها ، فما في الدنيا عاقل يحارب عدواً ويدفع إليه ماله ليقويه به على نفسه ، وولده ليربيه على كرهه ، ولتبحث عن الثغور التي تذهب منها أموالنا إليهم ، فتسدها . بالمقاطعة الاقتصادية ، لا بإلقاء المواعظ للترغيب فيها ، والخطب للحث عليها ، لا ، فهذا كلام فارغ ، ولكن بالقوانين الصارمة ، والعقوبات الشـديدة ، كما حرمت معـاملة الصهيونيين بقانون ، وحدت لهـا الحدود الرادعة ، والعقوبات المانعة .

وبذلك ترتقي صناعتنا ، وتجود أخلاقنا ، لأننا سنضع ما نستطيع صنعه مما نفقده بالمقاطعة ، ونصبر عن باقيه ، وقد صبرنا مدة الحرب عن كثير من الضروري ، ونصبر إنكلترا اليوم عن الخبز المشبع في سبيل وطنها ، ولا تقول شيئاً ، فهلا في مثل هذا قلدناها ؟

على أن في بلادنا (أعني في بلاد العرب) كل ضروري ، ولا نفقد بهذه المقاطعة إلا قليلا من وسـائل الترف ، مما يضر ولا ينفع .

ولتضع الحـكومات العربية القوانين الصريحة بإغلاق كل مدرسة أجنبية ، إنكليزية أو فرنسية أو أمريكية ، وإلا ذهب عملنا هباء ، وكان عبثا ، وأخرجت هـذه المدارس من أبنائنا أعداء لنا ، وأعواناً لعدونا ، كما وقع في الشام ، حين تولى ضرب دمشق رجل عربي أبوه شيخ ، اسمه علاء الدين الامام ، عليه لعنة الله

فإذا صنعت ذلك كان علينا ، أن نعلن الهدنة بيننا وبينها ، ونكف في هذه الأيام عن معارضتها ، لنتعاون جميعاً على حرب عدونا وعدوها ، وكان على كل شاب في بلاد العرب كلها ، وكل شيخ ، وكل امرأة ، أن يعلم أنه جندي في هذه الجبهة وأنه يجب عليه أن يعمل فيها شيئاً : يمشي إلى القتال ، إذا جدّ الجدّ ، وجاءت ساعة القتال ، وكان قوياً قادراً ، أو يبذل الفضل الزائد من ماله إذا كان من أصحاب المال ، أو يحارب بقلمه وبلسانه ، إذا كان من أصحاب الألسنة والأقلام ، وعلى كل واحد منا ، وعلى كل واحدة ، أن يحرم على نفسه كل شيء أجنبي ، فلا يأكله إن كان مأكولا ، ولا يشربه إن كان مشروباً ، ولا يمسّه إن كان طيباً ، ولا يلبسه إن كان ثوباً ، ولا يقرؤه إن كان كلاماً ، ما لم يكن علماً خالصاً ، أو أدباً إنسانياً صرفاً ، ولا يتداوى به إن كان عَقّاراً ، ما لم يكن مضطراً إليه ولا يجد ما يسد مسدّه ، ولا يرسل ابنه إلى مدرسة أجنبية ، ولا يدعه يذهب في السياسة والاقتصاد مذهباً أجنبياً ، وأن نمحو أسماءهم من شوارعنا وميادينا ، ونطمس ذكرهم من مدارسنا وبرامجنا ، إلا ببيان حقائقهم ، وهتك السُتر الخادعة عنهم ، وأن نداوي نفوسنا من هذا السل القاتل الذي هو احتقار نفوسنا ، وتعظيم الغربيين ، وأخذ كل ما يأتي منهم أخذ الضعيف ، وأن نوقن أننا أقوياء حقاً ، أقوياء بماضينا